فن الفكاهة كشكل من أشكال المقاومة المعاصرة

The art of humor as a form of contemporary resistance

حورية بن قدور

جامعة محمد خيضر بسكرة(الجزائر)، houria.benkadour@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/29 تاريخ القبول: 2022/04/28 تاريخ النشر: 2022/07/31

ملخص:

برزت في المجتمع الجزائري عبر مراحله التاريخية خاصة الأخيرة منها، تعابير فكاهية ساخرة تمثلت خصوصا في النكت المتداولة بين أفراده، لما للسخرية والهزل والتهكم من أثر كبير في رسم مقاومة معاصرة تتبناها الشعوب مقابل القهر وكبث الحريات، فكانت وسيلة للتندر والمرح مستغلين في ذلك عدة شخصيات للنقد الاجتماعي ووسيلة سخريتهم من الأوضاع البائسة والمنحطة، أما فئات أخرى من النكات فكانت ذات صبغة عنصرية نوعا ما، كان ضحيتها العديد من المناطق والجهات داخل التقسيم الجغرافي للبلاد. تحول تفاصيل يومياتنا التي تبرز العجز عن حل وتدارك الأزمات في مجتمعاتنا إلى مواد دسمة فاكهة تهدف إلى التخفيف من حدة وتأزم الواقع، ومع تكرار هذه المواد الفاكهة وممارسة الأساليب الساخرة عليها وتناقلها وانتشارها يذهب تدريجيا قبح هذا الوضع المتأزم ويتحول إلى واقع مألوف يعهده المجتمع.

الكلمات المفتاحية: الفكاهة، المقاومة، الأزمات، الضحك، التنفيس.

Abstract :

In the Algerian society, through its historical stages, especially the last ones, ironic humorous expressions emerged, especially in the jokes circulated among its members, because irony, humor and sarcasm have a great impact in drawing a contemporary resistance adopted by peoples in exchange for oppression and the suppression of freedoms. As for other categories of jokes that were of a somewhat racist nature, many regions and parties within the geographical division of the country were the victims. The details of our diaries that highlight the inability to solve and remedy crises in our societies are transformed into rich, fruity materials aimed at alleviating the severity and crisis of reality.

With the repetition of these fruitful materials and the practice of satirical methods on them and their transmission and spread, the ugliness of this tense situation gradually disappears and turns into a familiar reality familiar to society.

Keywords : humor, resistance, crices, laughter, catharsis

1.مقدمة

إن وجود الإنسان لا ينفصل عن وجود الآخرين، والضحك يفترض وجود إنسان آخر يكون موضوع الضحك أو المشارك فيه، وهذا ما يؤكده برغسون: "اننا لا نستمتع بالضحك إذا كنا منعزلين، لأن الضحك يحتاج إلى صدى، أصغ إليه جيدا إنه ليس صوتا واضحا إذا كان محددا، إنه يحتاج إلى امتداد ينعكس فيه، فهو كلمعان البرق الذي ينتهي بدوي، إنه كالرعد الذي يتردد صداه في الجبال"[1]، فالطرف الآخر في الضحك هو من يزيد من صبغة المتعة والمؤانسة والتداول والاستمرار.

2.المجتمع الجزائري بين أناس الفرح و أناس الكآبة:

إن ممارسة الفكاهة تتم في الفضاء الاجتماعي في المجتمع، وبين أفراده بدرجات متفاوتة بين هؤلاء الأفراد، أي حسب الجماعات وفاعليتها على الإنتاج وإعادة الإنتاج كمجموعة الشباب ،الطلبة والموظفين وغيرها من الجماعات. فمنهم من يميل إلى أسلوب التعبير الفكاهي والساخر ومنهم لا يحبذه، ولكن انطلاقا من الفضاء الذي تتم فيه ممارسة السلوك أو الفعل الفكاهي يمكن لنا اعتبار السلوك الفكاهي والهزلي بأنه سلوك صادر من فئة تمثل وتعكس الجماعة غالبا (مكنون جماعي متفق عليه). لذلك فالسلوك الهزلي إنتاج من فئة غالبا ما تلخص سلوك الجماعة المتبقية.

إن أي تجمع بين أفراد المجتمعات ومنها المجتمع الجزائري، يتم تجاذب فيه أطراف الكلام لا تخلو منه النكتة والتنكيت، "في جعبتنا نكات تطال العلاقات ما بيننا، وأخرى لا توفر ساسة البلاد، وثالثة تبالغ في رسم أوضاعنا الاقتصادية، ورابعة تقفز فوق هويتنا لتلامس جنسيات التي نتعايش وإياها"[2]. فالمجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات عندما تنسد أمامه المنافذ وخصوصا أمام الكلمة المعبر عنها والرأي المعلن، لذلك فإن الكلمة الهامسة، السارية سرا والمتناقلة شفهيا والضاحكة في وجه المحن والأزمات، الساخرة من الوضع العام تغدو النكتة والفكاهة والسخرية فيها كناقد ومقوم.

---

[1] بوكفوسة محمود ، النكتة الشعبية الاجتماعية بمنطقة وهران، مرجع سبق ذكره، ص 25.

[2] حمود نسرين، النكتة في بيروت –ضحك ونسيان، 2017/05/22

http:// www.aldohamagazine.com/article.aspx!n=11fd54f6-c1e1-48b4-958e-bbb387ad8e48àd=20160101.

لكن هذا التفاعل مع الحديث الفكاهي أو التعبير الساخر يختلف في درجاته بين الأفراد، فمنهم من يميل ويهوى السخرية والفكاهة إنتاجا ورواية، ومنهم من يميل إلى سماع وتبادل أطراف الحديث الفكاهي، فيما يوجد من هو بعيد عن الجانب الفكاهي والحديث الساخر. كل من هذه التوجهات والميولات تخضع لنفسية وتنشئة الأفراد، وإلى طرق وأساليب استمتاعهم في نظام الجماعة.

لذلك ليس بالجديد إذ نرى أن الكاتب بوعلي ياسين يصنف أفراد المجتمعات بين أناس الفرح وأناس الكآبة حيث يقول: "هناك صنفان حديان من البشر، وما بينهما توجد أصناف –بينية- كثيرة، تميل بهذه الدرجة أو تلك إلى احد القطبين: أناس الفرح وأناس الكآبة. ضمن هؤلاء وأولئك يتواجد طيبون وشريرون بالمقاييس الاخلاقية المتعارف عليها، يعد من أناس الفرح: المهرجون والثوريون والمومسات والمبدعون، ومن أناس الكآبة الرهبان والشحاذون والطغاة والمربون..."[3].

هذا التصنيف يراد من خلاله إبراز السمات الشخصية للأفراد من خلال اللجوء إلى الجو الفكاهي الذي يمنح النفس البشرية نوعا من ضروب الراحة والإنس وحتى الإحساس بالانتصار والتفوق رغم مآسي ومتاعب الحياة.

3. السخرية والهزء من منطلق العين البصيرة واليد قصيرة:

لقد كان للمفهوم البرغسوني للهزل والتفكه أهمية كبرى من خلال تلك المكانة التي يحتلها بين أفضل التحاليل النفسية والفلسفية والاجتماعية والفنية، التي أثارت الضحك والهزل الإنساني، كما له مهمة اجتماعية، حيث يربط برغسون بين الهزل -المنفعة- الصدمة – الاجتماع- المقاومة –النقد – التحدي، وله مهمة الإدماج والإقصاء.

كان يهدف برغسون من خلال حديثه عن الضحك "لإزالة تلك القيود والتهوين من شأنها، وذلك عن طريق استعمال وممارسة الضحك منها ومن ثمة تأكيد السلوكات الحرة، حسنة التوافق والتي تعيد التوازن للحيات الاجتماعية"[4].

[3] بوعلي ياسين، بيان الحد بين الهزل والجد، مرجع سبق ذكره، ص 16.

[4] يحياوي محمود، الفن الهزلي عند برغسون، مرجع سبق ذكره، ص28.

نجد أن كل من الفيلسوف هاشت (HACHETTE) وكيي (QUILLET) يتفقان على ان الضحك الذي يهتم به الفلاسفة والمفكرين هو الضحك الذي يولده الهزل والسخرية، وهو مختلف عن الضحك الذي يتجلى عن الفرح والسعادة، فيما يقسمان هذه النظريات التي اهتمت بالضحك إلى عدة نظريات ورؤى. يهمنا منها النظرية التالية:

هي نظرية تهدف إلى القول بأن الضحك يولد من التعالي والشعور بالدونية، حيث: أن المتفكه الضاحك يلاحظ شيئا في الطرف الأخر (الفرد الآخر) فيتعالى عنه، أو يشعر أنه دون ذلك، إن السخرية والهزء في هذه المواضع لا تعبر عن أكثر من رسالة موجهة هي محاولة إيجاد توازن اجتماعي نفسي وفردي يسمح للفكاهي الساخر النقد من منطلق لا يحرك ساكنا سوى الإحساس بالتفوق والارتياح الداخلي الذي يدفعه إلى محاولة الكشف والفضح وفي نفس الوقت الإقرار بعدم القدرة على التدخل. وبالتالي كشف الشيء أو الحدث أو الواقع الحقيقي الذي يتخفى وراء الظاهر والسطحي عن طريق رسائل تحملها مضامين السخرية والهزل.

إن هذا النوع من التعبير الفكاهي الساخر خاصة في إطاره المعاصر: "يحقق نوع من التحرر، فهو الذي يمكنني كفرد من أن أتحرر من هذا أو ذاك، وأتمكن من أن أوضح ذاتي، فهو يمكنني من تجاوز هذا السجن الذي وضعت فيه نفسي أو وضعت فيه غصبا عني المجتمع، التنشئة، البيئة، العائلة، الديانة، الأصل ...)، فعندما أضحك فانا أقوم بهذا الفعل وفقا لمجموعة من المقاصد، لأنني أستطيع أن أحدد الحركة الهزلية التي قمت أو قام بها غيري، ولأن إحساسي يختلف عن إحساس الآخرين، تفطني إلى ذلك النقد أو ذلك التلميح نتيجة لرغبتي في أن أتجاوز ذلك الوضع الوجودي الذي وضعت فيه"[5].

لا شك ممارسة الفكاهة في أشكالها (الهزل، السخرية، النكتة، الكاريكاتير...) في معنى، قول، أو تعبير هو ضد الجمود والشعور بالعجز عن التغيير –تغيير طرائق التفكير والحياة- وهو فعل يقصد منه عدم الخضوع بل إحداث التوازن من خلال السخرية من الواقع رغم عدم القدرة على مواكبته، فالأولى هو الجانب الساخر لا الجانب المستسلم وبالتالي تطبيق المثل العربي القائل "العين بصيرة واليد قصيرة". فالعين بصيرة تعني إدراك الأحداث ومراقبة التغيرات والتحولات وحتى التجاوزات، واليد قصيرة أي لا طائل لها من إحداث التغيير أو الإصلاح أو المشاركة، وبالتالي اللجوء إلى يد وعين السخرية اللاذعة.

[5] يحياوي محمود، مرجع نفسه، ص183.

إن المجتمع الجزائري لم تتطور فيه آليات التعبير الحر المباشر، "لم يفكر أفراده في المواجهة المباشرة مع السلطة لطول رضوخها للطغيان والاستبداد والخوف، بل لاذت بحصن الابتعاد منها، واختارت أن تكسر صمتها باللجوء إلى سبل أكثر ضمانا للسلامة والأمن"[6]. وبالتالي هذا الخيار من خلال الضحك يتيح لنا ابراز التفوق والانتصار "الناس يضحكون لأنهم يشعرون بنوع من الانتصار على الآخرين"[7]. فكل ما هو غير مقدور الوصول إليه بالطرق العادية أو حتى الوصول إليه بالنقد الجاد أو التعبير عن رفضه، تكون السخرية والفكاهة وإطلاق النكات عليه المجال والسبيل الأمثل لتحقيقه، وبالتالي يكون الإحساس بإدراكه والتفوق والوصول لكشف عيوبه وفضحه والإنقاص من قيمته هو عن طريق السخرية. فكل عالي تصله وتعلو عليه الفكاهة ولا ملاذ من التخلص منها.

فحتى من الجانب النفسي للأفراد فإن الضحك والفكاهة يخفف من حدة التوتر الموجود والمعاش من طرفهم، وبالتالي تصبح لديهم فرصة الكشف عن رغباتهم المكبوتة والتغلب على المحرمات والموانع الاجتماعية، الثقافية، والدينية.

فأدوات التفكه وممارسة الفكاهة من أجل إحداث توازن من منطلق العين بصيرة واليد قصيرة، فإذا لم تنجح في الوصول وتحقيق الرغبات تلك، فاهجها ونل منها بالنكات والمهازل المضاحك.

تحول تفاصيل يومياتنا التي تبرز العجز عن حل وتدارك الأزمات في مجتمعاتنا إلى مواد دسمة فاكهة تهدف إلى التخفيف من حدة وتأزم الواقع، ومع تكرار هذه المواد الفاكهة وممارسة الأساليب الساخرة عليها وتناقلها وانتشارها يذهب تدريجيا قبح هذا الوضع المتأزم ويتحول إلى واقع مألوف وعهده المجتمع.

4.من الهشاشة والتهميش إلى الرفض والمقاومة:

تكلمنا سابقا أن كل أنواع وأشكال الفكاهة إنما هي نتاج لظروف اجتماعية سياسية ثقافية واقتصادية... غالبا ما تقف أمام التطور والسيرورة الاجتماعية الإنسانية بسبب تخلفها أو فشلها،

[6] الورفلي مبروكة ، الضحك في وجه الخوف –مفردات المقاومة السلبية في المج الليبي، مجلة المستقبل العربي، ب ت، ص56.

[7] الورفلي مبروكة ، الضحك في وجه الخوف ، مرجع نفسه، ص57.

"السخرية كثيرا ما استعملت تحت أشكال مختلفة: سخرية، فكاهة، نكتة، هزل، استهزاء كل بحسب توظيفها وفعاليتها من حيث دلالات ومعاني كل كلمة وكل شكل من الأشكال المعبرة عن الإنقاص من قيمة الآخر، هجاؤه، المس بشخصه أو بكرامته أو بموقعه. فالسخرية كثيرا ما استعملت كسلاح بارد وصامت ضد الخصم"[8].

إن تكرار هذه الظروف والأزمات في المجتمع ونتاجاتها الغير مقبولة غالبا، تجعل من التهكم والسخرية أكثر وسائل للتعبير الاعتراضي التي يلجأ إليها المواطن أو الفرد، "وخاصة عندما لا يجد للنقد المباشر متسعا في الحياة العامة"[9]. ويضيف إن من دواعي ظهور الفكاهة والتنكيت والعبارة الساخرة في جوفها المقاوم والند هو: "عندما يحفل المجتمع بالنقائص والمفارقات، وتتعدد شؤون الحياة تنشأ ظواهر تبدو وكأنها في غير مكانها متنافرة مشوهة وبالتالي وبالتالي مثيرة للرفض"[10].

تتوفر المجتمعات الحالية في الوطن العربي عامة ومجتمعنا الجزائري خاصة على أسباب لا حصر لها من الهشاشة الاجتماعية والظروف المزرية، التي تدفع نحو الرفض الساخر والنقد التهكمي الذي تتضمنه النكتة، وتجعل من تلك الظروف مادة لها في سخريتها وفكاهتها، "فهنالك المسافة الشاسعة بين وعود الحاكم، وبين ما يفي به، وهناك الفارق الكبير بين الماضي المجيد، رغم شح الموارد، وبين الحاضر الأليم رغم تفجر الثروة التي نرى أن أفضل وصف لها وللمجتمع الرأسمالي المنتج للفوارق الطبقية، هو وصف – برنارد شو- لما قارن لحيته مقابل صلعته، "الرأسمالية، هي كثرة في الإنتاج وسوء التوزيع"، ثم الوعود بتحقيق العدالة وتأمين الحرية التي تحولت عبر قرون مظلمة، سمتها الظلم والكبت، إلى الاستبداد، والتميز الطبقي، والأيديولوجي والطائفي والعنصري، فكان النقد والسخرية المتنفس الوحيد لهذه الشعوب المقهورة والمهمشة"[11].

"لقد لعب العمل الفني الهزلي والرسوم الهزلية دورا مهما في ثقافة الشباب، وفي الثقافات الفرعية، وفي المقاومة بكل أشكالها وخاصة السياسية منها على امتداد القرن العشرين"[12]... "لقد عرفت

[8] يزلي عمار ، النكتة الاجتماعية هل هي تهريب سياسي؟، مجلة الدوحة، عدد 70، 2013، ص01.

[9] جابر هشام ، النكتة السياسية عند العرب، مرجع سبق ذكره، ص11.

[10] جابر هشام ، نفسه، ص24.

[11] جابر هشام، النكتة السياسية عند العرب، مرجع سبق ذكره، ص72.

[12] الموسوعة الثقافية، ص 88 بي دي اف.

الأعمال الهزلية الساخرة رواجا كبيرا لها في جميع أنحاء المجتمعات التي عانت ظروفا قاسية وأوضاعا متأزمة... وبينما يبقى الرسم الهزلي أو التعبير التهكمي ملمحا شعبيا وهاما في صحافة وثقافة العالم كله، ويبقى من ثم مصدرا هاما من مصادر التعليقات السياسية، والنقد والايديولوجيا داخل الدول الديمقراطية، فإن الستينات من القرن العشرين هي التي شهدت ظهور العمل الهزلي "السري" كسلاح من أسلحة المقاومة السياسية (الثقافة المضادة)"[13].

إن هذه التعابير الفكاهية الساخرة والناقدة "عادة ما تنطلق من عذاب نفسي لا يجد له صاحبه من دواء، وهي تعليق غير مألوف (رد الفعل) على حالة مألوفة أو غير مألوفة"[14]. وتحت ستار الفكاهة يعبر عن الرفض والعداء الحقيقي للواقع وعن المسئول عن هشاشة الوضع وتأزم الظروف.

ومن هذا المنطلق يقول علماء السيكولوجيا الجماهيرية: "إن الإنسان غالبا ما يتهكم على نقيضه، فالفقير يتهكم على الأغنياء، والمتعلم على الجاهل، والكريم على البخلاء، والقبيح على الوسيم والمرؤوس على رئيسه... في حين هناك من الناس من يتهكم ويسخر على مثله ليقنع سامعه بأنه ليس من هذه الفئة من الناس، تنفيسا من عقدة نفسية تؤرق مضجعه، ومهاجمة الشيء الذي يكرهه الانسان ولو كان داخله يسري عنه ويعبر شعوره نحو موقف ما ويفسر لنفسه وللآخرين ملابسات شعوره ودوافعه"[15].

فليس غريبا أن تسعى الشعوب والأفراد لفرض نفسها عن طريق سلسلة من الفكاهات المتنوعة الأشكال والمضامين خاصة إذا رأت أن السبل أغلقت أمامها من إثبات وجودها أو محاولة الإصلاح والتعايش. "فالذات الإنسانية في طبيعتها تفر من ضرورة العيش في هذا العالم وقسوته خاصة لما يستحيل عليها التعديل والتلطيف والتلاؤم"[16]. ومن طرق الفرار هذه هي الفكاهة وبكل تجلياتها، وخير دليل على هذا هي ظاهرة "البودكاستر" التي أخذت منعطفا كبيرا واجتاحت المجتمعات العربية، فأتقنها بعض المبدعون وحاولوا من خلالها نشر ومعالجة بعض المواضيع الاجتماعية، "فتطورت المواضيع المعالجة من الصبغة الفكاهية الهزلية إلى تناول مواضيع الجادة والحساسة مع العديد من مشاهير هذا الفن ... حيث يتم طرح القضايا الجدية في قوالب غالبا ما تكون هزلية، باعتماد الكوميديا كوسيلة لإيصال رسائل هادفة إلى

[13] الموسوعة الثقافية، ص 89 بي دي اف.

[14] جابر هشام، النكتة السياسية عند العرب، ، مرجع سبق ذكره ص195.

[15] جابر هشام ، نفسه، ص197.

[16] أنظر: طريق الإنسان الجديد بين الحرية والاشتراكية، دار الآداب، بيروت، 1962، ص 71.

مختلف شرائح المجتمع تحاكي قضايا محل اهتمام مثل: المرأة، العنف، التعليم، السياسة، الفساد....وغيرها من القضايا التي يرى البودكاستر أنها لا تحوز اهتمام الإعلام التقليدي أو لا يمكنه تمريرها عبر قنواته"[17].

تتضمن الفكاهة وخاصة في أشكالها التعبيرية الشفهية الساخرة (النكتة) "تعبيرا مفعما بالعدوانية تجاه ضحيتها: عدوانية متولدة عن القهر اليومي المعاش، ووفقا لما يراه مصطفى حجازي فإن النكتة هي نوع من العدوان اللفظي توجهه المجموعات المغبونة نحو قاهريها، يقول : "من أشكال العدوانية التي تشيع ضد المتسلط، العدوان اللفظي بالنكات وبالكاريكاتير وبالتشنيع عن اختلافها، إنها ظاهرة لا يكاد يخلو منها مجتمع يعيش أهله في حالة رضوخ. التشنيع والنكتة تعبيران رمزيان عن العدوانية تجاه المتسلط. فيها نيل منه وحط من قيمته وتعال عليه، إنها نوع من قلب الأدوار الوهمي، حين ينعت هذا الأخير الأوصاف التي تحط قدره، بينما يضحك المواطن المقهور ضحكة المنتصر، وهذه الأساليب تصرف العدوانية الكامنة المتراكمة وتمنع انفجارها نحو الخارج"[18]. فالأمور التي تشغل بال المواطنين والأفراد ولا يجدون لها حلا خاصة إذا كانوا يشعرون بالتهميش وغلق منافذ الحوار والتعبير فتزداد تعابيرهم الفكاهية حدة وفتكا، ويصبح النقد اللاذع هو محتوى الرسالة الفكاهية.

"إننا نضحك كثيرا، ونكاد نبكي من الضحك في أغلب الأحيان إن لم نكن بكينا، ومن المؤكد أننا لا نهرول إلى الضحك عبثا... لا نلجأ إليه من اجل بهجة مؤقتة، بل هناك سلسلة من الخطاب المعبر عن الوعي تخبؤها طاقة من الضحك بلا ريب"[19].

5.الفكاهة قضية معاصرة يرتبط وجودها بالأزمات:

"تعتبر الفكاهة أو التفكه، من الجوانب المميزة للسلوك الإنساني، أما الضحك فهو التعبير الجسمي أو الفسيولوجي عن هذا الجانب"[20]. والفكاهة رسالة اجتماعية مقصود منها إنتاج الضحك والابتسام، مثلها مثل أي رسالة اجتماعية أخرى، تحقق الفكاهة بعض الأهداف أو الوظائف، وتستخدم

[17] خالدي عادل، في الجزائر واقع افتراضي، مجلة الدوحة، العدد 129، يوليو 2018، ص ص 65-66.

[18] الورفلي مبروكة، الضحك في وجه الخوف ، مرجع سبق ذكره، ص57.

[19] ابراهيم عبد الله غلوم، بنية الكوميديا الهزلية، مرجع سبق ذكره، ص 57.

[20] شاكر عبد الحميد ، الفكاهة والضحك، مرجع سبق ذكره، ص05.

بعض الأساليب كما تعتمد على بنيتها الخاصة، ومحتواها المميز لها أيضا، وتستخدم في مواقف وأحداث معينة لها طبيعة خاصة بالمجتمع أو البيئة غالبا.

إن في تاريخ مجتمعاتنا العربية ثروة كبيرة، إذا لم نقل تخمة في مجال الأدب الدعابي، والمكتبة العربية مليئة بكتب النوادر من نوادر الأطباء إلى نوادر المغفلين، مرورا بنوادر القضاة وغيرهم من الأصناف والمجالات الذين نالتهم العرب بالنوادر، في الأزمنة الغابرة امتدادا حتى العصر الحالي.

"إن حاجة الإنسان إلى التفريج عن كربه جعلته ينشد البسمة والضحكة ويسعى إلى الملحة أينما وجدت، وكما يقول الأديب اللبناني الراحل رئيف خوري: ما أدري هل عرف الأدب زمانا لم تكن فيه النوادر والملح والطرائف فلذا من صميم الأدب وجوهره"[21].

هذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن الفكاهة كانت ولا تزال سلطة أدبية شعبية رائجة على مدى الأزمنة والعصور، وذلك نظرا لتجدد دوافع وأسباب حضورها ورواجها.

ترتبط النكتة غالبا بالأزمات ارتباطا وثيقا، فهي المعبر عنها والمتحدي لها، والساخر منها، والأزمات هي التي تغذي الضحك وتقدم له مادته، وتموله بمواضيع عديدة ويظهر هذا الارتباط بالأساس في الانتشار الكبير لأنواع عديدة من الهزل أثناء الأزمات والحروب، كما أن أغلب المفكرين والنقاد لا يهتمون بالفكاهة والضحك وبقيمتهما إلا عند اشتداد الأزمات وتهديدها للوجود الإنساني. إن قيمة الفكاهة هذا في أنها تنبهما إلى ما نعيشه من زيف وخداع وفساد و...، فهي تدفع إلى إعادة التفكير وبعث الاهتمام بالوجود، ولكن السؤال المهم هو: هل ان واقعنا المعاصر هو الذي يدعونا إلى الفكاهة والسخرية عنه؟ أم حالة مجتمعاتنا الراهنة باتت مضحكة وبالتالي يمكن أن تكون مادة لأعمال فكاهية ساخرة هزلية عديدة؟ وما هي طبيعة هذه الأزمات التي تدعونا للبحث في قيمة الفكاهة؟.

6.دلائل الأزمنة المعاصرة:

إن تزايد الانهيار النفسي والانهيار الشعوري في دول العالم عموما وفي مجتمعنا خصوصا، تزامن معه انهيار الأحلام وتفاقم الشعور باللاجدوى التي ملأت العقول، فأصبح الجميع يتساءلون عن معنى الوجود وعن كيفية حياة الناس أمام واقع مأزوم تسوده البطالة والفقر، والانحطاط والفساد من جهة

[21] جابر هشام ، النكتة السياسية عند العرب بين السخرية البريئة والحرب النفسية، ص 35.

والتهميش والإقصاء والرقيب من جهة أخرى، وفي هذا يقول الكاتب عبد الحميد شاكر: "الفكاهة (بكل أشكالها) موجودة في مظاهر حياتنا كافة، لدى الأطفال والكبار، في حالات الفرح وفي حالات المشقة والأزمات النفسية، ويتمثل الرأي الغالب في علم النفس الآن في النظر إلى الفكاهة –الضحك– على أنها احد أهم أساليب المواجهة (coping styles)التي يستعين بها الإنسان في التغلب على بعض آلامه النفسية الخاصة، كما أنها أحد الأساليب التي تستعين بها المجتمعات في مواجهة بعض مشكلاتها وأزماتها السياسية والاقتصادية"[22].

هذه المشكلات والأزمات ولدت أيضا شعور بالخوف وبالرعب، وقد أخذ هذا الخوف والرعب أشكالا تعبيرية متعددة ومتنوعة من الواقع، صيغت أغلبها في ذوات فاعلة لم ترضى بالوضع مستعينة بالهزل والضحك.

ومن نماذج هذه المشاكل ما يلي:

-تزايد حالة الاغتراب[23] في المجتمعات واللجوء إلى رفض الواقع ومقاومته بكل الوسائل، خاصة لما تتضاءل مساحة حرية التعبير أو تنعدم تماما.

-انعدام الثقة في الأنظمة وفقدان شرعيتها في نظر الأفراد نتيجة عدم كفاءتها أو فسادها.

-تناقض الخطاب الرسمي (وفي بعض الأحيان عدوانيته) والواقع المعيش، ووعي فئات المجتمع لهذا التباين.

-الشعور بالدونية مقارنة بدول العالم المتقدم خاصة لما يلاحظ من تقدم وتطور علمي وفكري وحتى من الجانب المعاملاتي (الحقوق الفردية).

-تزايد حالات البطالة وعدم القدرة على إيجاد مناصب عمل كافية بالرغم من وجود أعداد هائلة من حاملي الشهادات وذوي الكفاءات.

-ارتفاع نسبة الرسوب المدرسي والفشل.

-عدم وجود توازن اسري يضبط الأفراد بسبب المشاكل العائلية.

-اهمال الكتلة الشبابية وتهميشها وإقصائها.

---

[22] شاكر عبد الحميد ، الفكاهة والضحك، مرجع سبق ذكره، ص 06.

[23] عرف هيجل الاغتراب بحالة العجز التي يعانيها الإنسان عندما يفقد القدرة على تقرير مصيره والتأثير في مجرى الأحداث التاريخية (أنظر: الورفلي مبروكة: الضحك في وجه الخوف، مجلة دراسات، ص 56).

-وغيرها من المشاكل الداخلية والخارجية التي يجد الأفراد أنفسهم يطوفون فيها وحولها.

هذه الأزمات وغيرها أدت إلى انتشار مشاهد متواصلة من السلبية والانهزامية، وتسببت في انعدام حوار ايجابي نظرا لكثرة التناقضات والتوجهات، فضاعت الذات وسط التعود على الدوران النظامي ضمن الدوائر المغلقة، معلنة بذلك محنة الفراغ الفكري والنفسي.

7. النكتة لتجاوز الأزمات أو التخفيف من حدتها:

ينسب حمودة إلى مصطفى كامل –رئيس حزب الأحرار- قوله: "إن النكتة تعبير لاذع عن موضوع يشغل بال الجماهير ولا تجد له حلا، وهي تزداد في الأوقات التي تقيد فيها الحريات، وتبرز عندما لا يجد الناس الوسائل الديمقراطية أمامهم متوافرة، وفي هذه الحالة تتسم النكتة بالقسوة وباللامبالاة"[24]. وبالتالي استطاعت الجماهير أن تترجم من خلال الفكاهة والسخرية في كل من التعابير في النكتة والرسومات في الكاريكاتير وغيرها من الفكاهة المسرحية والتلفزيونية ردود أفعالها على حالة الإحباط واليأس والغيظ. وهذه كانت المثال الحي على ضحك المواطن المقهور من رموز الفساد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي، ضحك يقلب مرارة الوضع إلى شعور بنشوة الانتصار على الوضع القائم ومن أجل مواجهة الضغط النفسي.

وفي ذات السياق نجد أحد الكتاب الفرنسيين كارول جيرون يضع كتابا خاصا للنكات ولكن ضد فئة معينة من الفرنسيين وهم (les belges) معنونا كتابه بـ: [25](histoires belges)ويقوم من خلال مؤلفه هذا بسرد حوالي 400 نكتة تحكي وتروي تفاصيل وأحداث تخصهم ولكن بطريقة ساخرة ومضحكة. ويقول أن عمله هذا كان يهدف من خلاله تأريخ وحفظ الذاكرة الفرنسية للفرنسيين وليس محاولة الهجوم أو الإنقاص من الآخرين. وهذا هو حال الفكاهة مرات التي كثيرا ما يتم إسقاطها على شخصيات وفئات معينة.

فالنكتة في حربها ضد الأزمات والأحداث والأشخاص اختصرها محمد النويهي كالتالي: "إنها رد الإنسان الأعظم على معاكسة القدر، وظلم الدهر، وقسوة الطبيعة أو عيوب المجتمع، ونقائص الناس،

[24] مبروكة الورفلي: الضحك في وجه الخوف، مجلة دراسات، مرجع سبق ذكره، ص 67.

[25] CAROLE Giron, Histoires Belges, Editions Albin Michel S. A, 1999.

وهو يسخر من هذه جميعا، ولا يسبها ولا يحقد عليها بل يتأملها بهدوء ويبصر سخافتها وتناقضها وتفاهتها وصغرها، فيعلو عليها جميعا ويتحدث عنها بابتسامة هادئة جميلة مستخفة هازئة وينبغي أن لا يكون حديثه سيء اللفظ بذيئا، ولا يكون ثائرا وإلا كان سخرا، فالسخرة والهدوء التام والأدب التام والعلو التام عن مصائب الدنيا"[26].

فالنكات المتناقلة في مجتمعنا قد واكبت إلى حد بعيد التطورات والتحولات السياسية والاقتصادية، فكانت بمثابة الإخباريات (تأريخ شعبي) الشعبية عما يجري، إنما هي إخباريات غير حيادية لأنها تضمنت الرأي الشعبي بهذه التطورات والتحولات وأثرها عليه، بذلك مثلت شكلا من التعبير من الرأي يعوق جزئيا عن أشكال التعبير الأخرى الممنوعة أو الممتنعة عن عامة الناس. أما مفاعيلها فكانت تنفيسية أو تحريضية أو كشف للمستور وما تعلق بأمور فساد السياسة والاقتصاد ورجالاتهما من أجل التجاوز ومحاولة التخفيف من ضغوطات الحياة من خلال تصريف الطاقات التي لو تراكمت لأصبحت ذات فعالية سلبية في مجتمعنا.

8.خاتمة

يبقى أن نشير في هذا المجال أن العديد من الدراسات الإنسانية والبيولوجية الحديثة تشير بشكل عام إلى أن الفكاهة والضحك من الأمور الصحية والضرورية لجسم الإنسان، فبهما يستطيع استعادة توازنه، وذلك من خلال تأثيراتهما التي تتمثل في تزويد الدم بالأوكسجين والحفاظ على ضغط الدم متوازنا أو مستقرا وتنشيط الدورة الدموية، وخفض التوتر في الأعضاء الحيوية في الجسم، والمساعدة على الهضم وإراحة الجهاز الكلوي لجسم الإنسان، وبالتالي إنتاج حالة جديدة تجعله يشعر بالراحة والاطمئنان، ولذلك فإن للفكاهة والضحك أهميتها الجسمية والنفسية والاجتماعية والبقائية أيضا، فمن خلال مقاومة الإنسان للضغوط النفسية والجسمية وعلاجها بالضحك الذي تكون الفكاهة مثيرة له، يستطيع أن يقاوم ويقف بوجه مشكلات الحياة ومنغصاتها وأن يبقى حيا بشكل أفضل.

[26] خدامي محسن وجنتي فر محمد، السخرية وحقولها الدلالية في الشعر العراقي المعاصر أحمد مطر نموذجا، مرجع سبق ذكره، ص 592.

9.قائمة المصادر والمراجع

1. يزلي عمار، أنطولوجيا الثقافة والمقاومة –السخرية والمقاومة الثقافية للاحتلال، الجزء الثاني، منشورات البيت، الجزائر، 2014.
2. بوعلي ياسين، بيان الحد بين الجد والهزل –دراسة في أدب النكتة، دار المدى، بيروت، الطبعة الثانية، 2013.
3. يحياوي محمود، الفن الهزلي عند برغسون، أطروحة لنيل شهادة الدراسات المعمقة في الفلسفة، جامعة تونس، 2003-2004.
4. الورفلي مبروكة ، الضحك في وجه الخوف –مفردات المقاومة السلبية في المج الليبي، مجلة المستقبل العربي، ب ت.
5. برغسون هنري، الضحك، ترجمة علي مقلد، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، مصر، ب.ت.
6. زلي عمار ، النكتة الاجتماعية هل هي تهريب سياسي؟، مجلة الدوحة، عدد 70، 2013.
7. شاكر عبد الحميد وآخرون، الفكاهة وآليات النقد الاجتماعي، مطبوعات مركز البحوث الاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004.
8. غلوم ابراهيم عبد الله، بنية الكوميديا الهزلية -دراسة لتجربة الكاتب والمخرج المسرحي الكويتي عبدالرحمان الضويحلي وتوثيق لمسرحية انتخبوني، مؤسسة الانتشار الإعلامي، بيروت، لبنان، الطبعة 1، 2013.
9. جابر هشام ، النكتة السياسية عند العرب بين السخرية البريئة والحرب النفسية،
10. الداموني حسين علي لوباني، الملف السري للنكتة، الانتشار العربي، بيروت، الطبعة 1، 2005.
11. بوكفوسة محمد، النكتة الاجتماعية الشعبية في منطقة وهران -دراسة في مضامينها وأبعادها، ماجستير في الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010-2011.